﴿... فَاذكرُوا اللّهَ ...﴾ (٢)

حسن الحاج.[١]

ملخّص البحث:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ * وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَـٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَاذْكُرُواْ اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.[٢]

* * *

١. محقق و باحثٌ ديني.

٢. سورة البقرة: ١٩٨ـ٢٠٣.

إنَّ تكـرار الذكـر مـرّات في هـذا المقطـع القـرآني المختـصّ بالحجّ؛ لعلّـه يُراد منـه بيان شـدّة العنايـة الإلهيّة بخلقه سـبحانه وتعالى، وبما ينفعهـم؛ خاصة بأولئـك الوافدين لأداء مناسـك الحـجّ في هـذه البقاع المباركـة: عرفات والمشـعر الحرام ومنى، فضلاً عن المسـجد الحـرام وكعبتـه المباركة..، وحضّهم وتشـجيعهم لـترك ما لا ينفـع، وترغيبهم وتوجيههم لفعـل مـا هـو كثير فائـدةٍ وعظيم ثـوابٍ لهم، فـإنَّ خير مـا يقع في هـذه البقـاع والأوقات المباركـة هـو ذكر الله تعالى والاسـتزادة منـه من قبل أولئـك الذين يقصـدون البيت الحرام ومـا حولـه من بقـاعٍ مشرّفة؛ حجّاجـاً وعمّاراً، أفـراداً وأفواجـاً، ذكـوراً وإناثـاً، ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِـنْ رَبِّهِـمْ وَرِضْوَانًا**﴾!

***

... **الثانية :**

﴿**فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً...**﴾.

فـإذا فرغتم من أعمال الحجّ ومناسـكه ومواقفـه ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾، وليـس معنى هذا أنّهم غـير مخاطبين بذكر الله في أوقاتهـم وأعمالهم ومواقفهم جميعها، ولكـن للحجّ خصوصيته، فقد اجتمع الناس بشـتى أشـكالهم وأحوالهـم وألوانهم وثقافاتهم في منسـك ضمَّ عبادات روحيّـةً وبدنيّـةً وماليّـةً، فرديّـةً واجتماعيّـةً، فهـو مؤتمـر عظيم، ومدرسـة أعظـم، وبعد الفـراغ مـن مناسـكهم، وقيل بعـد الدخـول فيها، وممـا أرادته السـماء وأمام هـذه الجموع الإطاحـة بعـرف سـيئ كانـوا يُحيونه إذا فرغـوا من حجّهـم؛ يقفـون عند الجمـرة، أو يوم النحر، أو يجلسـون في الحجّ ..، فيذكرون مفاخر آبائهم، مناقب أسـلافهم، يتكاثرون بها، فأمرهـم الله تعـالى بذكـره بـدل ذلك، بل وبأشـدّ منـه، وأن يتركـوا ذكر غيره ويقتصـروا على ذكره سـبحانه ..

وهـذا يدلُّ على أنَّ موسـم الحجّ ليس موسـم عبادة فقط مجرّداً عـن تربيتهم وتعليمهم، والتأشـير على سـلبياتهم وتنبيههم عليها، وإرشـادهم لما يناسـب هذا المنسـك المبارك، ولما

فيـه خير الدنيـا والآخرة...، لنقف عند الآيـة المذكورة:

﴿**قَضَيْتُـمْ**﴾ لغـةً: واختلـف في الفعل قضى المذكور بـين كونه يعني الفراغ من الشـيء أو الدخـول فيـه. فهومـن الفعل قـضى يقضي قضـاءً.. والصّـلاةَ والحـجّ والدَّيْـن: أدّاها. يقـال: قـضى المديـن الدائـن دينـه: أدّاه إليه. والصـلاة: أدّاهـا بعد مـضيّ وقتهـا. وعَبْرَتَه: أنفـد كلّ دموعه.

وَقَـضَى فـلان صلاتـه أَي فَـرَغَ منهـا. وقَـضَى عَبْرَتَـه أَي أَخـرج كلّ مـا في رأْسِـه؛ قال أَوس: أَمْ هَـل كَثِـيرُ بُكـىً لم يَقْضِ عَبْرَتَـه، إثرَ الأَحبَّةِ يـومَ البَيْنِ، مَعْـذُور؟ أي لم يُخْرِج كلَّ مـا في رأْسـه. فإذا قضيتـم، أي: أديتـم وفرغتم. كقولـه: ﴿**فَـإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ**﴾.[1] أي: أُديـت، والمـراد مـن الآية الفـراغ. وقـال بعض المفسريـن: يحتمـل أن يكون هذا الشـرط والجـزاء، كقولـك: إذا حججـت فطـف وقـف بعرفـة، فـلا نعنـي بالقضـاء الفـراغ مـن الحـجّ، بـل الدخـول فيـه. وأما الذكـر فنعني به ما أمـروا به مـن الدعاء بعرفات، والمشـعر الحـرام، والطواف والسـعي، فيكون المعنى: فـإذا شرعتم في قضاء المناسـك، أي: في أدائها ﴿**فَاذْكُـرُوا اللهَ**﴾ وأجـاب غيرهم أنَّ هـذا خلاف الظاهر؛ لأنَّ الظاهر الفراغ من المناسـك لا الشـروع فيهـا، ويؤيد ذلك مجـيء الفاء في: فـإذا، بعد الجمل السـابقة.

الإعراب:

﴿**فَـإِذا**﴾: الفـاء اسـتئنافية، وإذا ظرف لما يسـتقبل مـن الزمن خافـض لشرطه منصوب بجوابه.

﴿**قَضَيْتُمْ**﴾: فعل وفاعل والجملة في محل جرّ بالإضافة.

﴿**مَناسِكَكُمْ**﴾: مفعول به والكاف ضمير متصل في محل جرّ بالإضافة.

﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط.

---

١. سورة الجمعة: ١٠.

﴿كَذِكْرِكُمْ﴾: الكاف مع مجرورها في محل نصب مفعول مطلق أي: اذكروا الله ذكراً مماثلاً لذكركم آباءكم، أو حال.

﴿آباءَكُمْ﴾: مفعول به للمصدر المضاف لفاعله.

أما ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾، فقد شكّل هذا العطف موضوعاً مهماً ذا أقوال عديدة بين المختصّين، حتى وصفها بعضهم أنَّ: «هذه مسألة طويلة عويصة...»، وهو ما دفع آلدرويش، وحسناً فعل حين وصف: «هذا العطف مما يُشكِلُ على المعرب، وفيه أقوال يضيع الطالب في متاهاتها».

ولما كانت الأقوال التي أوردها النحاة والمفسرون متساوية الرجحان، رأينا تلخيصها على وجه مبسط قريب، وفعلاً لخّصها بنقاطٍ أربع..، كان منها ما لجأ إليه أبو البقاء العكبري بعد أن أعيته الحيل، وهو أنَّ الكلام محمول على المعنى، والتقدير: أو كونوا أشدَّ ذكراً لله منكم لآبائكم،...

وأما أبو حيّان فبعد أن أورد الأقوال والوجوه، ووصفها كلّها بالضعف، قال: وقد ساغ لنا حمل الآية على معنى أنهم أمروا بأن يذكروا الله ذكراً يماثل ذكر آبائهم أو أشدّ.

و يقول عنه آلدرويش: ولعله أقرب إلى المنطق وأدناه إلى الفهم، وقد اكتفى به بعـ المفسرين المتأخرين في حواشيهم المطوّلة.

ولابن عاشور كلام مفصل ونافع حول هذه المسألة التي وصفوها بقولهم: وهذه مسألة طويلة عويصة ما رأيت من يفهمها من الشيوخ إلّا ...، نذكر شيئاً يسيراً منه خشية الإطالة: فبعد أن يقول عن الآية ﴿**فاذكروا الله**﴾: أعاد الأمر بالذكر بعد أن أمر به، وبالاستغفار تحضيضاً عليه، وإبطالاً لما كانوا عليه في الجاهلية من الاشتغال بفضول القول والتفاخر، فإنه يجرُّ إلى المراء والجدال، والمقصد أن يكون الحاجّ منغمساً في العبادة فعلاً وقولاً واعتقاداً.

وقوله: ﴿**كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ...**﴾، بيان لصفة الذكر، فالجار والمجرور نعت لمصدر

محـذوف أي ذكـراً كذكركم.. إشـارة إلى ما كانوا عليه من الاشـتغال في أيـام منى بالتفاخر بالأنسـاب ومفاخر أيامهم، ...

ثـمَّ يقول: والمراد تشـبيه ذكـر الله بذكر آبائهم في الكثرة والتكريـر، وتعمير أوقات الفراغ بـه، وليـس فيـه ما يـؤذن بالجمـع بين ذكـر الله وذكر الآبـاء. وقولـه: ﴿**أَوْ أَشَـدَّ ذِكْـراً** ...﴾، أصـل أو أنهـا للتخيـير .. أفـادت أو معنـى مـن التـدرج إلى أعلى، فالمقصـود أن يذكـروا الله كثيراً، وشـبه أولاً بذكر آبائهم تعريضاً بأنهم يشـتغلون في تلك المناسـك بذكـر لا ينفع، وأنَّ الأجـدر بهـم أن يعوضـوه بذكر الله، فهـذا تعريض بإبطـال ذكر الآبـاء بالتفاخر...

فالمـراد مـن التشـبيه أولاً إظهـار أنَّ الله حقيـق بالذكر هنالك مثـل آبائِهم، ثم بـيّن بأنَّ ذكـر الله يكـون أشـدَّ؛ لأنه أحقّ بالذكر، وأشـدّ لا يخلـو عن أن يكون معطوفـاً على مصدر مقـدر منصـوب عـلى أنـه مفعـول مطلـق بعـد قولـه: ﴿**كذكركـم آباءكـم**﴾، تقديـره: فاذكـروا الله ذكـراً كذكركـم آباءكم. فتكون فتحة ﴿**أشـدَّ**﴾ التي في آخره فتحـة نصب، ... والتقدير ذكـراً كذكركـم آباءكم،...

محمـد رشـيد رضـا: وقولـه تعـالى: ﴿أَوْ أَشَـدَّ ذِكْـراً﴾ معنـاه ظاهـر، وهـو بـل اذكروه أشـدّ مـن ذكركـم آباءكـم، وفيـه مـن الإيجـاز ما ترى حسـنه. قـال الأسـتاذ الإمـام: وقد تعسّـف في إعرابـه الذيـن حكّموا النحو الـذي وضعـوه في القرآن، ويعجبنـي قول بعض الأئمّـة، وأظـنّ أنّـه أبوبكر بـن العربي: مـن العجيـب أنّ النحويين إذا ظفـر أحدهم ببيت شـعر لأحـد أجـلاف الأعـراب يطـير فرحاً بـه ويجعلـه قاعـدة، ثمّ يشـكل عليـه إعراب آيـة مـن القـرآن فلا يتّخذهـا قاعدة، بـل يتكلّـف في إرجاعهـا إلى كلام أولئـك الأجلاف وتصحيحهـا بـه، كأنّ كلامهـم هـو الأصـل الثابـت، ويعجبنـي أيضاً مـا قاله أبـو البقاء، وهـو أنّ للقـرآن إيجـازاً واختصـاراً في بعض المواضـع المفهومة مـن المقام، وهـو أنّ المعنى هنـا؛ أو كونـوا أشـدّ ذكـراً، ومثـل هـذا شـائع في اللغـة، وقـال الأسـتاذ هنـا كلمتـه التي يكرّرهـا في مثـل هـذا المقام وهـي: إنّـه كان يجب أن يكـون القـرآن مبدأ إصـلاح في اللغة

العربية،...

هذا لغة وإعراباً.

البلاغة :

وأما بلاغة الآية، فقد وردت في أحد الأعاريب لقوله: ﴿أشد ذكراً﴾.

يقول آلدرويش: إشارة إلى المجاز العقلي، ...

إسناد الذكر إلى الذكر مستحيل، ولكنه ملابسة له أصبح كأنه شخص عاقل أجنبيّ عنه يقوم به، وجميل قول أبي تمام:

تكاد عطاياه يجنّ جنونها إذا لم يعوّذها بنغمة طالب

فقد أسند الجنون إلى مصدره، والسرّ فيه ما أوضحناه من الملابسة الشديدة التي تجعل غير العاقل عاقلاً لشدة وقوعه منه، ويكاد الطلاب يلتبس عليهم الفرق بينه وبين الاستعارة المكنية مع أنه ليس فيه مشابهة مقصودة.

وقال أبو فراس:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم وفي الليلة الظّلماء يفتقد البدر

ولأبي الطيب مقطوعة وردت على نمط المجاز العقلي، وهي من جيد الشعر:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا

وتولوا بغصّة كلّهم منه وإن سرّ بعضهم أحيانا

ربما تحسن الصّنيع لياليه ولكن تكدّر الإحسانا

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا.[1]

١. إعراب القرآن، آلدرويش؛ التحرير والتنوير، ابن عاشور؛ البحر المحيط، أبو حيان: الآية؛ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ): الآية.

أسباب النزول :

ذكـروا عـدّة أسـباب لنـزول هـذا الآيـة التـي راحت تُعالـج حالـة اجتماعيّـة تتمثل بالتكاثـر بالأنسـاب، آباءً وأجـداداً وقبائل، ويُقسـمون بهم وبما يزعمون لهـم من مواقف، مـع التفاخـر بأموالهـم وأولادهـم وفعالهـم شـعراً ونثـراً؛ وليـس هـذا فقـط بـل راحـوا يتغزّلـون بالنسـاء، فهـذا عمر بـن أبي ربيعة:

قَـد عَرَضَـت لي بِالمُحَصَّبِ مِـن مِنىً ... مَـعَ الحَـجِّ شَـمسٌ سُـتِّرَت بِيَـمانِ

بَـدا لِيَ مِنهـا مِعصَـمٌ يَـومَ جَمَّـرَت ... وَكَـفٌّ خَضيـبٌ زُيِّنَـت بِبَنـانِ

فَلَـمّا اِلتَقَينـا بِالثَنِيَّـةِ سَـلَّمَت ... وَنازَعَنـي البَغـلُ اللَعـينُ عِنـاني

فَـوَاللهِ مـا أَدري وَإِنّي لَحاسِـبٌ ... بِسَـبعٍ رَمَيـتُ الجَمـرَ أَم بِثَـمانِ

فَقُلـتُ لَهـا عوجـي فَقَـد كانَ مَنـزِلي ... خَصيـبٌ لَكُـم نـاءٍ عَـنِ الحَدَثـانِ

فَعُجنـا فَعاجَـت سـاعَةً وَتَكَلَّمَـت ... فَظَلَّـت لَهـا العَينـانِ تَبتَـدِرانِ

ـ فـترى العـرب كانوا عنـد الفراغ مـن حجّتهم بعد أيـام التشريق، يقفون بين مسـجد منـى وبـين الجبـل، ويذكـر كلُّ واحـد منهـم فضائـل آبائـه في السـماحة والحماسـة وصلة الرحـم، ويتناشـدون فيهـا الأشـعار، ويتكلمـون بالمنثـور مـن الـكلام، ويريـد كلُّ واحد منهـم مـن ذلـك الفعـل حصـول الشـهرة والترفـع بمآثـر سـلفه، فلـما أنعـم الله عليهـم بالإسـلام، أمرهـم أن يكـون ذكرهـم لربّهـم كذكرهـم لآبائهم .

ـ أهـل الجاهليـة إذا اجتمعـوا بالموسـم، ذكـروا فعـل آبائهـم في الجاهليـة، وأيامهـم وأنسـابهم فتفاخـروا.

ـ الأعـراب إذا حدّثـوا أو تكلّمـوا، يقولـون: وأبيك، إنهـم لفعلوا كذا وكـذا، أو كانوا إذا حدّثـوا، أقسـموا بالآباء، فيقولـون. وأبيك،...

ـ إذا اجتمعـوا في الموسـم تفاخـروا بآبائهـم، فيقـول أحدهـم: كان يقـرى الضيـف،

ويضرب بالسيف، ويطعم الطعام، وينحر الجزور، ويفك العاني، ويجر النواصي، ويفعل كذا وكذا،...

ـ إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل، فيعدون فضائل آبائهم، ويذكرون محاسن أيامهم.

ـ إذا قضوا المناسك وأقاموا بمنى، يقوم الرجل ويسأل الله فيقول: اللهم إنَّ أبي كان عظيم الجفنة، كثير المال، فأعطني بمثل ذلك! ليس يذكر الله، إنما يذكر أباه، ويسأل الله أن يعطيه في دنياه.

ـ العرب بمنى بعد فراغهم من الحجّ، كان أحدهم يقول: اللهم إنَّ أبي كان عظيم الجفنة، عظيم القدر، كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته،...

ـ أهل الجاهلية يقفون في الموسم يقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديّات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم .

ـ يقفون بين مسجد منى أي موضعه وهو مسجد الخيف وبين الجبل أي جبل منى الذي مبدؤه العقبة التي ترمى بها الجمرة فيفعلون ذلك...

ـ يقفون بمنى بين المسجد والجبل يتفاخرون ويتعاكظون (من عكظ..، تَعَاكَظوا: تناشدوا الأشعار وتفاخروا وتجادلوا.. ومنه عُكاظ: سوق للعرب كانوا يجتمعون فيها فيتناشدون ويتفاخرون)، فأمرهم الله تعالى بأن يذكروا الله تعالى بعد قضاء المناسك ـ هي أعمال الحجّ – كما كانوا يذكرون آباءهم في الجاهلية، أو أشدّ من ذكرهم إيّاهم.

إنهم أُناس لطالما تعوّدوا ذكر الأموات من آبائهم في هذه المواقف، وتجذّر ذلك في سلوكهم وسيرتهم؛ حتى غدت عادةً لا يمكنهم العزوف عنها بسهولة، فهي وإن بلغت أحياناً في سلبيتها أنَّهم قد يتعالون على غيرهم بها؛ ويطلبون بها الشهرة والترفع على مَن حولهم، لكنها قد لا تخلو من عدم بخس لحقوق الآباء والأجداد، ومن وفاءٍ لهم، وتقدير واعتزاز بهم، وبتراثهم، وبسجاياهم كالكرم والسخاء والشجاعة

والفروسـية والإباء والنخوة والسـماحة..، وبها قدموه وتركوه لأبنائهم..، فالفخر حالة أو صفـة أخلاقيّة تضـاف إلى الصفات الأخلاقيّـة الأخر التي تصنعها بيئة الإنسـان ومجتمعه وأعرافـه وبيتـه وتربيتـه، ويتمسـك بها ويتمثلهـا سـلوكاً في حياته وفي علاقتـه بالآخرين، ولكـن أن يبقـى يتفاخـر بأنسـابه، ويقضي جلَّ عمـره يزهو بآبائـه ـ على فـرض أنَّهم تركوا عمـلاً نافعـاً وموقفاً طيباً مؤثراً، يسـتحقون عليه الذكر والتخليد ـ ن يتحلّى بسـلوك مثمـر؛ يُقـدم عطاءً للناس وعمـلاً مفيداً للأُمّـة ولمجتمعه، هذا يُعدُّ أمراً سـلبياً بل وسـيئاً .. فالإنسـان ينبغـي أن يتشرف ويفتخر بأفعـال زكية ومواقف حسـنة يؤدّيها، وبها يعكس صـورة طيبـة نافعة لـه ولآبائه ونسـبه ولمن حولـه، وإلّا بئس مـا ولدوا..

روي عن النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «من بطّأ به عملُه لم يُسرع به نسبُه».

وكـم هـو جميـل و رائـع ما نُسـب للإمـام علـيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم أجـده في الديوان، ونسـب إلى غيره؛ مـن أنَّـه قال:

كُـن اِبـنَ مَـن شِـئتَ وِاكتَسِـب أَدَباً ... يُغنيـكَ مَحمُـودُهُ عَـنِ النَسَـبِ

فَلَيـسَ يُغنـي الحَسـيبُ نِسـبَتَهُ ... بِـلا لِسـانٍ لَـهُ وَلا أَدَبِ

إِنَّ الفَتـى مَـن يَقـولُ هـا أَنـا ذا ... لَيـسَ الفَتـى مَـن يُقـولُ كانَ أَبي

يقول السيد السبزواري:

وفي الخطـاب كمال العنايـة واللطف والتآلف حيـث أمرهم بالذكـر كذكرهم لآبائهم؛ لئـلّا ينزجروا عـن طريقتهم التي كانـوا عليها ،...

لقـد صـارت ظاهرةً أخـذت مسـاحةً واسـعةً في علاقاتهم الفرديّـة والقبليّـة، وغدت تلازمهـم في موسـم الحجّ، وكأنَّها منسـك لا يتـمُّ الحجُّ إلّا به، يسـتعدون له أيّما اسـتعداد، ويتمنـون أن يـأتي موسـم الحجّ، وإنهاء مناسـكه؛ لكي تُعقـد ندواتهم، ويتبـاروا فيما بينهم أمجادهـم، وهـم سـادرون فيـما هـم فيـه، غافلـون عـن أنَّهـم ينحـدرون بعملهم هـذا إلى الهاويـة، وإلى آثـاره السـيئة عليهـم، وأخطرها الغفلـة عن ذكر الله عـزَّ وجـلَّ، وابتعادهم

عـن روح مناسـك الحـجّ وأخلاقياتها وأهدافهـا في بناء علاقة الإنسـان الحاجّ بـالله تعالى، وقـد تـؤدّي طريقتهم هـذه إلى الجـدال المنهي عنه.

﴿وَلا جِدَالَ فِي الْـحَجِّ﴾.[1]

فأنـزل الله تعـالى هـذه الآية، لعلاج هـذا الداء القائـم بينهم، ووقف رسـول الله صلى الله عليه وآله في حجّـة الـوداع خطيبـاً في اليوم الثاني من أيّام التشريق، فأرشـدهم إلى تـرك تلك المفاخرات قائلاً:

«يـا أيهـا النـاس إنّ ربّكـم واحـد، وإنّ أبّاكـم واحـد، ألا لا فضل لعـربي على عجمي، ولا لعجمـي عـلى عـربي، ولا لأحمـر عـلى أسـود، ولا لأسـود عـلى أحمـر إلّا بالتقـوى. أبلّغـت»؟! قالـوا: بلّـغ رسـول الله صلى الله عليه وآله.[2]

ولـو لا أن أنـزل الله تعـالى هـذه الآية، تحمل أمـراً ﴿فَاذْكُـرُواْ اللهَ...﴾، لاسـتمروا على فَعلَتهـم هـذه. حتـى أنَّ الـرازي جعل هـذا هو المراد مـن الآية بقولـه:.. بل المـراد تحويل القـوم عـما اعتـادوه بعـد الحـجّ من ذكـر التفاخر بأحـوال الآبـاء، لأنَّـه تعالى لـو لم ينه عن ذلـك بإنـزال هذه الآيـة، لم يكونـوا ليعدلوا عن هـذه الطريقـة الذميمة، فكأنه تعـالى قال: فـإذا قضيتم وفرغتم مـن واجبات الحجّ وحللتـم، فتوفّروا على ذكـر الله دون ذكر الآباء.[3]

ذكـر الآبـاء وقـع مشـبهاً به! «إنّـما جعل ذكـر الآباء مشـبّها بـه والغالب في التشـبيه أنّ المشـبّه بـه أقـوى في الوجـه مـع أنّ ذكـره تعالى ينبغـي أن يكـون أقـوى جرياً عـلى الواقع، فـإنّ أكثـر النـاس لا يذكر الله إلّا أحياناً يسـيرة، ولا يغفـل عن ذكر آبائه، فـكان ذكر الآباء أكثـر وجـوداً، فحسـن جعله مشـبّهاً بـه». هذا ما ذكره الشـيخ السـيوري.

أمـا الزمخشري فيقول:..إنما جعل ذكر الآباء مشـبهاً به، والغالب في التشـبيه أنَّ المشـبه

---

١. سورة البقرة: ١٩٧.

٢. انظر أسباب النزول للواحدي؛ التفسير الكبير، الرازي؛ ومصادر التفسير: الآية.

٣. انظر التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ): الآية، المسألة الرابعة.

بـه أقـوى في الشـبه مـع أنَّ ذكره تعـالى ينبغي أن يكـون أقوى جريـاً على الواقع، فـإنَّ أكثر النـاس لا يذكـرون الله إلّا أحيانـاً يسـيرة، ولا يغفلـون عـن ذكر الآبـاء، فكان ذكـر الآباء أكثـر وجوداً، فحسـن جعله مشـبهاً به.

السـبزواري: ﴿**أو أشـدَّ ذكـراً**﴾، لتقريـب أنَّ نعـم الله عليهـم وعلى آبائهم أكثـر وأجلّ وأعـلى مـن كلّ نعمـة، فلابـدَّ وأن يكـون الذكر بما يناسـب جلال الله ونعـماءه..!

ثـمّ يقـول: إنما شـبّه ذكـره تبـارك و تعالى بذكـر الآبـاء؛ لأنّ أكثـر النـاس لا يغفلون عـن ذكـر الآبـاء والتفاخـر بهـم، بـل لا يخلـو اجتماع بـين أفـراد الإنسـان مـن التفاخر بما يرونـه مـن الكـمال، و لم يكن جهـة كمال في العصـور الجاهليـة، إلّا ذكر الآباء و الأنسـاب و التفاخـر بهـا، فأرشـدهم سـبحانه إلى الأحسـن والأصلح، و هـو ذكره تعالى لمـا فيه من النفـع العظيم والأجـر الجزيل.

و يقـول أيضـاً: في الآيـة تحريـض إلى ذكـره تعـالى والإكثـار منـه والمبالغـة فيـه وعـدم الغفلـة عنـه، كـما لا يغفـل أحد عـن ذكـر آبائه، لا كـما اعتـادوا من ذكـر الآبـاء والاكتفاء بهـم. والشـدّة تأتي بمعنى الكثـرة في الكيفيـة والكثرة في الكميـة، أي أنَّ ذكركـم الله تعالى إمـا أن يكـون كذكـر آبائكم أو أشـدّ وأكثـر وأعلى.

﴿**كَذِكْرِكُـمْ ءَابَاءَكُـمْ**﴾، فيه ثمانية وجـوه ذكرها الرازي، نكتفي منهـا بالوجه الأول، قـول جمهور المفسـرين، وهو ما انتهى الـرازي إليه أيضـاً، وهذا قوله:

واعلـم أنَّ هـذه الوجـوه وإن كانـت محتملـة، إلّا أنَّ الوجـه الأول هـو المتعـين، وجميع الوجـوه مشـتركة في شيء واحـد، وهـو أنـه يجب عـلى العبـد أن يكون دائـم الذكـر لربّه، دائـم التعظيـم لـه، دائـم الرجـوع إليه في طلـب مهماتـه، دائـم الانقطاع عمن سـواه.

أمـا الوجـه الأول فهـو: أنَّ القـوم كانـوا بعد الفـراغ من الحـجّ، يبالغـون في الثناء على آبائهـم في ذكـر مناقبهم وفضائلهـم، فقال الله سـبحانه وتعالى:

﴿**فَاذْكُـرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُـمْ ءَأَبَاءَكُـمْ**﴾، يعني توفـروا على ذكر الله كـما كنتم تتوفرون

عـلى ذكـر الآبـاء، وابذلـوا جهدكـم في الثنـاء عـلى الله، وشرح آلائـه ونعمائـه كـما بذلتـم جهدكـم في الثنـاء عـلى آبائكم؛ لأنَّ هـذا أولى وأقـرب إلى العقل من الثناء عـلى الآباء، فإنَّ ذكـر مفاخـر الآبـاء إن كان كذبـاً، فذلك يوجـب الدنـاءة في الدنيـا والعقوبـة في الآخرة، وإن كان صدقـاً، فذلـك يوجـب العجـب والكـبر وكثرة الغـرور، وكلّ ذلك مـن أمهات المهلـكات، فثبـت أنَّ اشـتغالكم بذكـر الله أولى مـن اشـتغالكم بمفاخـر آبائكـم، فـإن لم تحصـل الأولويـة فلا أقـل من التسـاوي.[1]

الترديد :

وأمـا ما قاله السـيوري عن الترديد في: ﴿**أَوْ أَشَـدَّ ذِكْراً**﴾: إنـما ردّد، لتفاوت النفوس في مراتـب القبـول، فـإنّ منهـم من لا يخلو عـن الذكـر طرفة عـين، ومنهم من لا يخطـر بباله ذكـر ربّـه إلّا أن ينبّهه غـيره، وبينهما مراتب كثـيرة؛ ولذلك ردّد في خطابهـم، فقنع من قوم بذكـر كذكـر آبائهم كالعـوامّ، ومن قوم أشـدّ من ذلـك كالخواص.

السـيد السـبزواري:.. الترديـد إنّـما هو بلحـاظ اختلاف التقـوى و تفاوتهـا في مراتب الذّكـر، فمنهـم مـن يقنع بالذّكـر كذكـر الآباء، و منهـم من يكون أشـدّ.

الـرازي:.. بـل أشـدّ ذكراً، وذلـك لأنَّ مفاخر آبائهـم كانت قليلة، أمـا صفات الكمال لله عـزَّ وجـلَّ فهـي غير متناهيـة، فيجب أن يكـون اشـتغالهم بذكر صفات الكـمال في حقّ الله تعـالى أشـدّ مـن اشـتغالهم بذكر مفاخـر آبائهم، قـال القفال: ومجـاز اللغـة في مثل هذا معـروف، يقـول الرجـل لغـيره: افعل هـذا إلى شـهـ أو أسرع منـه، لا يريد به التشـكيك، إنـما يريد بـه النقل عـن الأول إلى مـا هو أقـرب منه ..

---

١. انظـر مجمـع البحريـن للطريحـي ٢ : ٩٧ ؛ الكشـاف ١ : ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ؛ كنـز العرفـان في فقـه القـرآن للسـيوري ١ : ٣٠٨ رقـم : ٤ ؛ مفاتيـح الغيـب، التفسـير الكبير، الـرازي : الآية ؛ مواهـب الرحمن في تفسـير القـرآن : الآية .

سيد قطب:.. ولقد سبق أنهم كانوا يأتون أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز.. وهذه الأسواق لم تكن أسواق بيع وشراء فحسب، إنما كانت كذلك أسواق كلام ومفاخرات بالآباء، ومعاظمات بالأنساب.. ذلك حين لم يكن للعرب من الاهتمامات الكبيرة ما يشغلهم عن هذه المفاخرات والمعاظمات! لم تكن لهم رسالة إنسانية بعد ينفقون فيها طاقة القول وطاقة العمل، فرسالتهم الإنسانية الوحيدة هي التي ناطهم بها الإسلام. فأما قبل الإسلام وبدون الإسلام فلا رسالة لهم في الأرض، ولا ذكر لهم في السماء.. ومن ثم كانوا ينفقون أيام عكاظ ومجنَّة وذي المجاز في تلك الاهتمامات الفارغة في المفاخرة بالأنساب وفي التعاظم بالآباء.. فأما الآن وقد أصبحت لهم بالإسلام رسالة ضخمة، وأنشأ لهم الإسلام تصوراً جديداً، بعد أن أنشأهم نشأة جديدة.. أما الآن فيوجههم القرآن لما هو خير، يوجههم إلى ذكر الله بعد قضاء مناسك الحجّ، بدلاً من ذكر الآباء: ﴿**فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً**﴾، وقوله لهم: ﴿**كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ...**﴾، لا يفيد أن يذكروا الآباء مع الله، ولكنه يحمل طابع التنديد، ويوحي بالتوجيه إلى الأجدر والأولى.. يقول لهم: إنكم تذكرون آباءكم حيث لا يجوز أن تذكروا إلّا الله، فاستبدلوا هذا بذاك، بل كونوا أشدَّ ذكراً لله، وأنتم خرجتم إليه متجردين من الثياب، فتجردوا كذلك من الأنساب.. ويقول لهم: إنَّ ذكر الله هو الذي يرفع العباد حقًّا، وليس هو التفاخر بالآباء. فالميزان الجديد للقيم البشرية هو ميزان التقوى، ميزان الاتصال بالله وذكره وتقواه.[1]

الكثير والأشدّ:

هناك في التنزيل العزيز نوعان من الذكر: الذكر الكثير والذكر الأشدّ، فالله تعالى يأمر مرّةً بالذكر المقيّد بالكثرة، وأُخرى مقيّد بالأشدّ، وكلا القيدين نجدهما في هذه الآيات:

١. في ظلال القرآن: الآية.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾.[1]

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.[2]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾.[3]

هذا مع قيد الكثرة، وهو خطاب للمؤمنين بصيغة الأمر لا فقط أن يذكروا الله بل أن يذكروه ذكراً كثيراً.

واختلف في معنى الذكر الكثير، فقيل: هو أن لا ينساه أبداً .. وقيل: هو أن يذكره سبحانه بصفاته العلى وأسمائه الحسنى، وينزهه عما لا يليق به. وقيل: هو أن يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر على كلّ حال .. وقد ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنهم قالوا: «من قالها ثلاثين مرة، فقد ذكر الله ذكراً كثيراً». «من سبَّح تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام فقد ذكر الله ذكراً كثيراً».

عن ابن عباس قال: جاء جبرائيل عليه السلام إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله فقال: «يا محمد قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلّا بالله عدد ما علم، وزنة ما علم، وملء ما علم، فإنَّ من قالها كتب الله له بها ست خصال: كتب من الذاكرين الله كثيراً، وكان أفضل من ذكره بالليل والنهار، وكان له غرساً في الجنة، وتحاتت عنه خطاياه كما تحات ورق الشجرة اليابسة، وينظر الله إليه، ومن نظر الله إليه لم يعذّبه...».[4]

---

١. سورة الأنفال: ٤٥.

٢. سورة الأحزاب: ٣٥.

٣. سورة الأحزاب: ٤١.

٤. مجمع البيان للطبرسي، سورة الأحزاب: ٤١.

وبـما أنَّ الذكـر الكثـير لـه أهمية كبـيرة وفضل أكـبر، ويُعدُّ مـخَّ العبادة، فما مـن عبادة إلّا وتتوفـر عليـه وتقـوم به، صار مـن اليسر بدرجـة عالية، تسـهيلاً للعباد وتشـجيعاً لهم عـلى كسـب المزيد من الأجر والثـواب، إضافةً إلى البنـاء الروحي وتزكيـة النفوس وتقوية الإيمان.

وكـم هـو جميل ما قاله الشـعراوي: أمرنـا ربُّنا سـبحانه بذكره ذِكْـراً كثـيراً، لأنَّ الذكْر عمـدة العبـادات، وأيسرهـا عـلى المؤمـن، لذلـك نجـد ربَّنـا يأمرنـا به عنـد الانتهـاء من العبـادات كالصـلاة والصيام والحـجّ... ويقول أيضـاً: إنَّ الذكر هو العبـادة الوحيدة التي لا تكلفـك شـيئاً، ولا تُعطـل جارحـة مـن جوارحك، ولا يحتـاج منك إلى وقـت، ولا إلى مجهـود، وليـس له وقـت مخصوص.

فمَـنْ ذكـر الله قائـماً، وذكـر الله قاعـداً، وذكـر الله عـلى جَنْبـه عُدَّ مـن الذاكريـن ـ هذا بالنسـبة لوضعك ـ.

ومَـنْ ذكـر الله بُكْـرةً، وذكـر الله أصيلاً، أو غـدواً وعشـيًّا، أصبح من الذاكريـن ـ هذا بالنسـبة للزمان ـ.

ومـن قال: سـبحان الله، والحمـد لله، ولا إلـه إلّا الله، والله أكبر، ولا حْـولَ ولا قوة إلّا بـالله العـلي العظيم، ثلاثـين مرّةً في اليـوم كُتِبَ مـن الذاكرين.

ومَنِ استيقظ ليلاً فأيقظ أهله، وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين.

إذن: فذِكْـر الله مسـألة سـهلة تسـتطيع أنْ تذكـر الله، وأنـت تعمل بالفـأس، أو تكتب بالقلـم، تذكـر الله وأنـت تـأكل أو تـشرب.. فذكـر الله وإنْ كان أكـبر إلّا أنـه عـلى المؤمن سـهل هَيِّن.

عـن ابـن عبـاس: إنَّ الله تعالى لم يفـرض على عباده فريضـة إلّا جعل لها حـدًّا معلومًا، ثـم عـذر أهلهـا في حال العـذر غير الذكر، فـإنَّ الله تعـالى لم يجعل له حـدًّا ينتهـي إليه، ولم يعـذر أحـدًا في تركـه إلّا مغلوبًـا عـلى تركـه. فقـال: ﴿**فَاذْكُـرُوا اللهَ قِيَامًـا وَقُعُـودًا وَعَلَى**

﴿جُنُوبِكُمْ﴾.[1]

بالليل والنهار، وفي البرّ والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسرّ والعلانية، وعلى كلّ حال. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾. فإذا فعلتم ذلك صلَّى عليكم هو وملائكته.

إذن أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه على أي حال كانوا، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب، وأن يشغلوا ألسنتهم في معظم أحوالهم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير. وجعل تعالى ذلك دون حدٍّ لسهولته على العبد..

ولا يكون ذاكرًا لله تعالى كثيرًا حتى يذكره قائمًا وجالسًا ومضطجعًا وفي أي صورة ووقت ..

﴿وَاذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾.

أي، واذكر ربَّك في نفسك وتذللًا وخوفًا من الله تعالى، وأن تسمع نفسك دون غيرك في أوائل النهار وأواخره، ولا تكن من الغافلين عن ذكر الله. المراد الحضّ على كثرة الذكر من العبد بالغدو والآصال، لئلا يكون من الغافلين...

لقد ذكر الله عزَّ وجلّ الذكر في آيات كثيرة جدًّا في القرآن، في الأمر به، والنهي عن ضده وهي الغفلة، وتعليق الفلاح بالإكثار منه، والثناء على أهله وحسن جزائهم، وجعل ذكره للذاكر جزاء لذكره له، وأنه أكبر من كلّ شيء، وختم الأعمال الصالحة به، فختم به عمل الصيام، وختم به الحج، وختم به الصلاة، وختم به الجمعة، وذكر اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته وهم أولوا الألباب، وذكر مصاحبته لجميع

١. سورة النساء: ١٠٣.

الأعمال واقترانه بها وأنه روحها فإنه سبحانه قرنه بالصلاة والصيام والحج ومناسكه، بل هو روح الحج ولُبُّه ومقصوده، وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران ومكافحة الأعداء.[1]

هذا في كثرة الذكر. وأما بالشدّة أو الأشدّ، فكما في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً**﴾، وسواء وصف الذكر بالكثرة أو كان موصوفاً بالأشدّية، يبقى ذكر الله تعالى هو الأكبر: ﴿**وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**﴾.[2]

وفيها أربعة أقوال:

أحدها: ولَذِكْرُ الله إِيَّاكم أكبرُ من ذِكْركم إِيَّاه... والثاني: ولَذِكْرُ الله تعالى أفضلُ من كلِّ شيء سواه... والثالث: ولَذِكْرُ الله تعالى في الصلاة أكبرُ ممَّا نهاك عنه من الفحشاء والمُنكَر... والرابع: ولذكر الله تعالى العبدَ ـ ما كان في صلاته ـ أكبرُ من ذكر العبد لله تعالى.[3]

وفيه حثٌّ لهم على الإكثار من ذكره سبحانه وتعالى ... هذا وأنَّ الذكرى كثرة الذكر، وهي أبلغ من الذكر، قال تعالى: ﴿**رَحمَةً مِنَّا وَذِكرىَ لِأُوْلِي الأَلبَاب**﴾.[4] ﴿**وَذَكِّر فَإِنَّ الذِّكرَى تَنفَعُ المؤمِنِين**﴾.[5]

يقول ابن القيم: فقيّد الأمر بالذكر بالكثرة والشدة، لشدّة حاجة العبد إليه، وعدم

---

١. تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)؛ تفسير تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)؛ تفسير خواطر محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٩ هـ).

٢. سورة العنكبوت: ٤٥.

٣. زاد المسير، لابن الجوزي ٣: ٤٠٩.

٤. سورة ص: ٤٣.

٥. سورة الذاريات: ٥٥.

استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عزَّ وجلَّ، كانت عليه لا له، وكان خسرانه أو حسراته فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله عزَّ وجلَّ. وقال بعض العارفين: لو أقبل عبد على الله تعالى كذا وكذا سنة، ثمَّ أعرض عنه لحظةً، لكان ما فاته أعظم مما حصَّله.

السيد العلامة: قوله تعالى ﴿**فَإِذَا قَضَيتُم مَناسِككُم**﴾، إلى قوله ﴿**ذكراً**﴾، دعوة إلى ذكر الله والبلاغ فيه بأن يذكره الناسك كذكره آبائه وأشدّ منه، لأنَّ نعمته في حقّه، وهي نعمة الهداية كما ذكره بقوله تعالى: ﴿**وَاذكروهُ كمَا هَداكُم**﴾، أعظم من حقّ آبائه عليه، وقد قيل: إنَّ العرب كانت في الجاهلية إذا فرغت من الحج مكثت حيناً في منى، فكانوا يتفاخرون بالآباء بالنظم والنثر، فبدله الله تعالى من ذكره كذكرهم أو أشدّ من ذكرهم، وأو في قوله أو أشدّ ذكراً للإضراب، فتفيد معنى بل، وقد وصف الذكر بالشدة، وهو أمر يقبل الشدّة في الكيفية كما يقبل الكثرة في الكمية، قال تعالى: ﴿**وَاذكُروا اللهَ كثِيراً**﴾.[1] ﴿**وَالذَّاكِرينَ اللهَ كثِيراً**﴾.[2]

فإنّ الذكر بحسب الحقيقة ليس مقصوراً في اللفظ، بل هو أمر يتعلق بالحضور القلبي واللفظ حاك عنه، فيمكن أن يتصف بالكثرة من حيث الموارد بأن يذكر الله سبحانه في غالب الحالات كما قال تعالى: ﴿**اَلَّذِينَ يَذكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جنُوبِهِم**﴾.[3] وأن يتصف بالشدة في مورد من الموارد، ولما كان المورد المستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيتُم مَناسِككُم**﴾، مورداً يستوجب التلهي عنه تعالى ونسيانه، كان الأنسب توصيف الذكر الذي أُمر به فيه بالشدة دون الكثرة كما هو ظاهر.[4]

---

١. سورة الأنفال: ٤٥.

٢. سورة الأحزاب: ٣٥.

٣. سورة آل عمران: ١٩١.

٤. انظر مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ١٩٠-١٨٠؛ مقدمة كتاب الوابل الطيب لابن القيم؛ تفسير الميزان، للسيد العلامة الطباطبائي: الآية.

الذاكرون:

فريقان من الناس، راح التنزيل العزيز يُبين حالهم وموقفهم، وما يؤول إليه أمرهم.

الفريق الأول :

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾.

كلُّ همّه الدنيا وما فيها من تكاثر وتفاخر.. وأمر جليٌّ وواضحٌ أنَّ من تكون الدنيا أكبر همِّه، فلا يسأل إلّا في نطاق هذا الهمّ، ولا يأمل إلّا فيما يحفظ له طموحه وهمَّه، وبالتالي إذا وصل به الأمر إلى دعاء الله تعالى فهو لا يدعوه إلّا بما يحقق له ما يريد، ولا يسأله إلّا بما يعزز هدفه ومبتغاه وهو الدنيا وحطامها ومصالحه فيها، فلا يذكر الآخرة وما فيها؛ انطلاقاً من عدم إيمانهم بالآخرة، فيكون دعاؤهم منسجماً مع ما يعتقدون.

فعن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف ـ يعني في الحجّ ـ فيقولون: اللهم اجعله عام غيثٍ وعام خصبٍ وعام ولادٍ حسن، فهم لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً.

الفريق الثاني :

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

يصبو إلى أكثر من الدنيا ؛ بمعنى أنَّه يتجاوز الحياة الدنيا إلى الآخرة ، فليست الدنيا أكبر همِّه ، وبالتالي يتمنى أن يحقق الدعاء له حسنة الدنيا وحسنة الآخرة ، فنظرته أبعد من نظرة الفريق الأول ، فهي نظرة تسمو بعيداً عن هموم الدنيا ونعيمها إلى نعيم الآخرة ؛ انطلاقاً من إيمانهم بالآخرة ، وما أعدّه الله تعالى فيها من نعيم للمطيعين الصالحين وعذاب للعاصين ؛ ولهذا تجدهم يرددون دعاءً جامعاً للحسنتين ، وقد جاء

دعاؤهـم أو جـاء الذكـر وقـد أمرهم الله تعـالى به ، ولكن متـى ؟ بعد أن أدّوا نسـكهم أي مـا عليهم من مناسـك العبـادة ؛ مناسـك الحجّ ..

وبـما أنَّ الآيـة نزلـت قبـل تحجـير الحـجّ عـلى المشركـين بآيـة بـراءة، فالمقسـم إلى الفريقـين جميـع الناس من المسـلمين والمشركـين، وبالتالي يتعـين أنَّ المراد بمـن ليس له في الآخـرة مـن خلاق هـم المشركـون، لأنَّ المسـلمين لا يهملـون الدعاء لخـير الآخرة مـا بلغـت بهـم الغفلة، إضافـةً إلى أنَّ الآية تحمـل تعريضاً بذم حالـة المشركين، فإنهم لا يؤمنـون بالحيـاة الآخـرة، وتحمـل إخباراً لهـذا الفريق من النـاس الذين كانـت عادتهم في الجاهليـة ألّا يدعـوا إلّا بمصالـح الدنيـا، إذ كانـوا لا يعرفـون الآخرة أنـه لا حظَّ له في الآخرة.[1]

فالآيـات الثـلاث ٢٠٠-٢٠٢ ، ومرادهـا الحـثّ عـلى الإكثـار والإرشـاد إليـه ، قـد توفّـرت عـلى أمر السـماء بالذكـر، وعلى تفصيـل للذاكريـن؛ إلى مقـلٍّ لا يطلـب بذكر الله تعـالى إلّا الدنيـا، ومكثـرٍ يطلـب بـه خـير الداريـن. فريقان اثنـان وقيـل ثلاثاً.

فعـن أبي عبـد الله عليه السلام في قـول الله عزَّ وجـلَّ: ﴿**رَبَّنَآ آتِنَـا فِى الدُّنْيَا حَسَـنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَـنَةً**﴾، قـال: «رضـوان الله والجنـة في الآخـرة، والمعـاش وحسـن الخلـق في الدنيـا». وأيضـاً عـن أبي عبـد الله عليه السلام قال: سـأل رجـل أبي بعد منصرفه مـن الموقف، فقـال: أترى الله يخيب هـذا الخلـق كلّـه؟ فقـال أبي: ما وقف بهـذا الموقـف أحـد إلّا غفر الله لـه مؤمناً كان أو كافـراً، إلّا أنهـم في مغفرتهـم عـلى ثـلاث (ثلاثـة) منـازل: مؤمـن غفـر الله لـه مـا تقـدم مـن ذنبـه و مـا تأخـر، وأعتقـه من النـار؛ وذلـك قولـه عـزَّ و جـلَّ: ﴿**رَبَّنَـآ آتِنَا فِى الدُّنْيَـا حَسَـنَةً وَفِى الآخِـرَةِ حَسَـنَةً وَقِنَـا عَـذَابَ النَّـارِ * أُولَـٰئِـكَ لَهُـمْ نَصِيـبٌ مِّمَّـا كَسَـبُواْ وَاللهُ سَرِيـعُ الْحِسَـابِ**﴾. ومنهـم مـن غفـر الله لـه مـا تقدم مـن ذنبـه، و قيل له: أحسـن فيـما بقـي مـن عمـرك، و ذلـك قولـه عـزَّ وجـلَّ: ﴿**فَمَـن تَعَجَّـلَ فِى يَوْمَـيْنِ فَلاَ**

١. التحرير والتنوير : الآية ؛ بتصرف كثير .

إِثْـمَ عَلَيْـهِ وَمَـن تَأَخَّرَ فَـلاَ إِثْمَ عَلَيْـهِ﴾.[1] يعنى من مـات قبل أن يمضي فـلا إثم عليه، و مـن تأخـر فـلا إثم عليـه لمـن اتقـى الكبائر.﴿ **فَمَـن تَعَجَّـلَ فِي يَوْمَيْنِ فَـلاَ إِثْـمَ عَلَيْهِ وَمَـن تَأَخَّـرَ فَـلاَ إِثْـمَ عَلَيْـهِ﴾**، يعنـي في النفـر الأول. ﴿**وَمَـن تَأَخَّـرَ فَـلاَ إِثْـمَ عَلَيْهِ﴾** يعنـي لمـن اتقـى الصيـد. أفـترى أنَّ الصيـد يحرمـه الله بعـد مـا أحلـه في قولـه عزَّوجـلَّ: ﴿**وَإِذَا حَلَلْتُـمْ فَاصْطَـادُواْ﴾**. وفي تفسـير العامـة معنـاه: فـإذا حللتـم فاتقـوا الصيـد، و كافـر وقـف هـذا الموقـف يريد زينـة الحياة الدنيـا، فغفر الله له مـا تقدم من ذنبـه إن تاب مـن الـشرك فيها بقـي من عمـره، و إن لم يتـب، وافاه أجـره، ولم يحرمـه أجر هـذا الموقف، وذلـك قولـه عزَّ وجـلَّ: ﴿**مَـن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَـاةَ الدُّنْيَـا وَزِينَتَهَا نُـوَفِّ إِلَيْهِـمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَـا وَهُـمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُـونَ * أُوْلَـــئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُـمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّـارُ وَحَبِطَ مَـا صَنَعُـواْ فِيهَا وَبَاطِـلٌ مَّا كَانُـواْ يَعْمَلُونَ﴾**.[2]

الـرازي:.. بـين الله تعـالى أنَّ الذيـن يدعـون الله فريقـان: **أحدهمـا**: أن يكـون دعاؤهم مقصـوراً عـلى طلـب الدنيـا. **والثـاني**: الذين يجمعـون في الدعاء بـين طلـب الدنيا وطلب الآخـرة. وقـد كان في التقسـيم: **قسـمٌ ثالث**، وهـو من يكون دعـاؤه مقصـوراً على طلب الآخـرة، واختلفـوا في أنَّ هـذا القسـم هـل هـو مشـروع أو لا؟ والأكثـرون عـلى أنه غير مـشروع، وذلـك أنَّ الإنسـان خلـق محتاجـاً ضعيفـاً لا طاقة لـه بـآلام الدنيا ولا بمشـاق الآخـرة، فـالأولى لـه أن يسـتعيذ بربّـه مـن كلّ شرور الدنيـا والآخـرة. ثـمَّ يذكـر الرازي مـا رواه القفـال في «تفسـيره» عـن أنس أنَّ النبـيَّ صلى الله عليه وآله دخل عـلى رجل يعـوده، وقد أنهكه المـرض. فقـال: ما كنـتَ تدعو الله به قبل هـذا؟ قال: كنـتُ أقول. اللهم ما كنـتَ تعاقبني بـه في الآخـرة، فعجل بـه في الدنيا.

---

١. سورة المائدة: ٢ .

٢. سـورة هود: ١٥-١٦؛ الكافي، الشيخ الكليني ٤: ٥٢٢؛ تفسـير البرهان في تفسـير القرآن، هاشـم الحسـيني البحراني)ت ١١٠٧هـ(.

فقـال النبــيُّ صلى الله عليه وآله: سـبحان الله! إنّـك لا تطيق ذلـك، ألا قلـت: ﴿**رَبَّنَا ءاتِنَـا فِي الدُّنْيَا حَسَـنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَـنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾؟![1] قال: فدعا له رسـول الله صلى الله عليه وآله فشـفي.

ويواصـل الـرازي بعـد هذا قائـلاً: واعلم أنه سـبحانه لو سـلط الألم على عـرق واحد في البـدن، أو عـلى منبت شـعرة واحدة؛ لشـوش الأمر على الإنسـان وصار بسـببه محروماً عـن طاعـة الله تعـالى وعن الاشـتغال بذكـره، فمـن ذا الذي يسـتغني عن إمـداد رحمة الله تعـالى في أولاه وعقبـاه، فثبـت أنَّ الاقتصـار في الدعـاء عـلى طلب الآخرة غـير جائز، وفي الآيـة إشـارة إليـه حيث ذكر القسـمين، وأهمـل هذا القسـم الثالث.

مـن هـم أُولئـك الذيـن يقتـصرون في الدعـاء عـلى طلـب الدنيـا ومـا فيهـا، وهم في موسـم الحـجّ، وفي المواقـف المشرفـة؟!

هم الكفار؛

روي عـن ابـن عبـاس أنَّ المشركين كانـوا يقولـون إذا وقفوا: اللهـم أرزقنا إبـلاً وبقراً وغنـماً وعبيـداً وإمـاءً، ومـا كانـوا يطلبـون التوبـة والمغفـرة، وذلـك لأنهم كانـوا منكرين للبعـث والمعـاد. وعـن أنس كانـوا يقولون: اسـقنا المطـر وأعطنـا على عدونـا الظفر.

هم مؤمنون ؛

ولكنهـم يسـألون الله لدنياهـم، لا لأخراهـم ، ويكون سـؤالهم هذا من جملـة الذنوب حيث سـألوا الله تعـالى في أعظم المواقف، وأشرف المشـاهد حطام الدنيـا وعرضها الفاني، معرضـين عـن سـؤال النعيـم الدائم في الآخـرة. ويُقـال لكليهما: ﴿**وَمَـا لَهُ فِي الآخِـرَةِ مِنْ خَـلاَقٍ**﴾، أي لا حـظَّ ولا نصيـب له فيها من خـير وكرامة ونعيم وثـواب. لا خلاق له في الآخـرة كخـلاق من سـأل الله لآخرته ..

أمـا الحسـنة: فـكلّ ما يـسرُّ من نعمـة تنال الإنسـان في نفسـه وبدنـه وأحوالـه، وتُقال للخصـب والسـعة وللظفر وللثواب...، جمعها: حسـنات، وهي ضدّ السـيئة مـن قول أو

---

١. سورة البقرة: ٢٠١.

فعـل .. والحسـنة هـي تلك التـي توافق قضـاءه وقدره ورضـاه وحكمـه وحكمته..

وللحسنة معانٍ :

الأولـى: هـي كلمة جامعة لجميـع مطالـب الدنيا والآخـرة، روى حماد بن سـلمة عن ثابـت أنهـم قالـوا لأنـس: ادع لنـا، فقـال: «اللهم آتنـا في الدنيا حسـنة وفي الآخرة حسـنة وقنا عـذاب النار».

قالوا: زدنا، فأعادها. قالوا: زدنا.

قال: ما تريدون؟ قد سألت لكم خير الدنيا والآخرة.

ولقـد صـدق أنـس، فإنـه ليـس للعبـد دار سـوى الدنيـا والآخرة، فإذا سـأل حسـنة الدنيـا وحسـنة الآخـرة لم يبـق شيء سـواه.

وثانيهـا: أن المـراد بالحسـنة في الدنيـا العمـل النافع ، وهـو الإيمان والطاعة ، والحسـنة في الآخـرة اللـذة الدائمـة والتعظيـم والتنعم بذكـر الله ، وبالأنـس به وبمحبتـه وبرؤيته .

وثالثهـا: قـال قتـادة: الحسـنة في الدنيـا وفي الآخـرة طلـب العافيـة في الداريـن، وعن الحسـن: الحسـنة في الدنيـا فهـم كتـاب الله تعـالى، وفي الآخـرة الجنة.[1]

الشيخ السيوري : ثمّ إنّه تعالى قسم الذاكرين إلى قسمين :

أحدهمـا : مـن مطلوبـه بذكـره أغـراض دنيويّـة مـن المـال والجـاه والخـدم والحشـم وغيرهـا مـن الحظـوظ..

﴿**وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾.

وليس له في الآخرة من خلاق أي من حظّ ونصيب.

ومفعـول (**آتِنَـا**) محـذوف، وإنّـما حذفـه لكونـه فضلـة، ولاختـلاف إرادات النـاس، فـكان ذكـر كلّ المـرادات يطـول، وذكـر البعـض تخصيـص مـن غـير مخصّـص، وذكرها

١. مفاتيح الغيب للرازي : الآية . باختصار وتصرف .

بلفظ مجمل مستغنى عنه بدلالة الفعل.(العقل). فلم يبق إلّا الحذف، فهو مثل قولنا فلان يعطي ويمنع.

وثانيهما: من مطلوبه أغراض أخرويّة، فإن خطر أمر دنيويّ فلا يطلبه ولا يريده، إلّا أن يكون عوناً على أمر أخرويّ لا لذاته.

وقوله: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا**﴾. يحتمل عوده إلى القسم الثاني، لقربه ويحتمل عوده إلى القسمين معاً، فإنّ قوله: ﴿**مِمَّا كَسَبُوا**﴾، شامل للحسنة والسيّئة معاً، ومعناه من قصد بذكره شيئاً، نال ذلك الشي ء من حسنة أو سيّئة، وإلى ذلك أشير في الحديث عن الباقر عليه السلام: «ما يقف أحد على تلك الجبال برّ ولا فاجر إلّا استجاب الله له، فأمّا البرّ فيستجاب له في آخرته ودنياه، وأمّا الفاجر فيستجاب له في دنياه».

قوله: ﴿**وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾، أي في مجازاته لأعمال عبيده، ولا يحتاج إلى فكر يعلم به ماذا يستحقّ المكلّف من ثواب أو عقاب أو لا يستحقّ، وإذا لم يحتج إلى فكر كان سريع الحساب.[1]

الزمخشري: ﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ** ...﴾، معناه أكثروا ذكر الله ودعاءه، فإنّ الناس من بين مقلٍّ لا يطلب بذكر الله إلّا أعراض الدنيا، ومكثرٍ يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين.

﴿**آتنا فِي الدُّنْيَا**﴾، اجعل إيتاءنا أي إعطاءنا في الدنيا خاصة.

﴿**وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾، أي من طلب خلاقي وهو النصيب.

أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب؛ لأنّ همّه مقصور على الدنيا.

والحسنتان ما هو طلبةُ الصالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير، وطلبتهم في الآخرة من الثواب. وعن عليٍّ عليه السلام: «الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي

١. كنز العرفان ١ : ٣٠٧- ٣٠٩.

الآخـرة الحوراء، وعـذاب النار امرأة السـوء».

﴿أُولَـٰئِكَ﴾ الداعون بالحسـنتين ﴿لَهُـمْ نَصِيبٌ مِّمَّـا كَسَـبُواْ﴾، أي نصيب من جنس مـا كسـبوا مـن الأعـمال الحسـنة، وهو الثـواب الـذي هـو المنافع الحسـنة. أو مـن أجل ما كسـبوا، كقولـه: ﴿مِّمَّـا خَطِيآتِهِـمْ أُغْرِقُـواْ﴾،[1] أو لهم نصيب ممـا دعوا بـه، نعطيهم منه ما يسـتوجبونه بحسـب مصالحهـم في الدنيا واسـتحقاقهم في الآخرة.

وسـمى الدعاء كسـباً؛ لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسـب بما كسـبت أيديكم. ويجـوز أن يكـون أولئك للفريقين جميعـاً، وأنَّ لكل فريق نصيباً من جنس ما كسـبوا.

﴿وَاللهُ سَرِيـعُ الْحِسَـابِ﴾، يوشـك أن يقيـم القيامة ويحاسـب العبـاد. فبـادروا إكثار الذكـر وطلـب الآخـرة، أو وصـف نفسـه بسرعـة حسـاب الخلائـق عـلى كثـرة عددهـم وكثـرة أعمالهـم، ليـدلّ عـلى كـمال قدرتـه ووجـوب الحـذر منه.

روي أنـه يحاسـب الخلـق في قـدر حلـب شـاة. وروى في مقدار فـواق ناقـة. وروي في مقـدار لمحة.[2]

السيد الطباطبائي :

قولـه تعـالى : ﴿فَمِـنَ النَّـاسِ مَن يَقُـولُ رَبَّنَـا آتِنَـا فِي الدُّنيَـا ...﴾، تفريع عـلى قوله تعـالى: ﴿فَاذكـروا الله كذكركم آباءكم﴾، والنـاس مطلق، فالمراد به أفراد الإنسـان أعمّ مـن الكافـر، الـذي لا يذكـر إلّا آبـاءه، أي لا يبتغـي إلّا المفاخـر الدنيويـة، ولا يطلب إلّا الدنيـا ولا شـغل لـه بالآخرة، ومـن المؤمن الذي لا يريـد إلّا ما عند الله سـبحانه، ولو أراد مـن الدنيا شـيئاً، لم يـرد إلّا مـا يرتضيه لـه ربّه...

ويكـون معنـى الآيـة أنَّ مـن النـاس مـن لا يريـد إلّا الدنيـا ولا نصيب لـه في الآخرة،

---

١. سورة نوح : ٢٥ .

٢. انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ؛ تفسـير الكشـاف، الزمخشـري (ت٥٣٨هـ): الآيات؛ زبدة البيان، السـيد الأردبيـلي (ت٩٩٣هجرية) : ٢٧٥-٢٧٧ .

ومنهـم مـن لا يريـد إلّا ما يرتضيه له ربّه سـواء في الدنيـا أو في الآخرة ولهـؤلاء نصيب في الآخـرة. ومـن هنـا يظهر وجه ذكر الحسـنة في قـول أهل الآخـرة دون أهل الدنيـا، وذلك أنّ مـن يريـد الدنيـا لا يقيـده بأن يكون حسـناً عند الله سـبحانه، بـل الدنيا ومـا هو يتمتع بـه في الحيـاة الأرضيـة كلّها حسـنة عنـده موافقة لهوى نفسـه، وهـذا بخلاف مـن يريد ما عند الله سـبحانه، فإنّ ما في الدنيا وما في الآخرة ينقسـم عنده إلى حسـنة وسـيئة، ولا يريد ولا يسـأل ربّه إلّا الحسـنة دون السيئة.

﴿وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾، اسـم مـن أسـماء الله الحسـنى، وإطلاقه يدلّ على شـموله للدنيـا والآخـرة معـاً، ... فـإنَّ النـاس عـلى طائفتـين منهـم مـن يريـد الدنيا، فـلا يذكر غيرهـا ولا نصيـب لـه في الآخـرة، ومنهـم مـن يريـد مـا عنـد الله ممـا يرتضيـه لـه ولـه نصيـب مـن الآخـرة، والله سريـع الحسـاب، يـسرع في حسـاب ما يريـده عبـده فيعطيه كما يريـد...[1]

سـيد قطـب:.. ثـم يزن لهم بهذا الميـزان، ويريهم مقاديـر الناس ومآلاتهم بهـذا الميزان: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ... وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ...﴾، إنَّ هناك فريقين: فريقـاً همّه الدنيا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾، فهو حريص عليها، مشـغول بها. وقـد كان قـوم مـن الأعـراب يجيئـون إلى الموقـف في الحـجّ، فيقولـون: اللهـم اجعله عام غيـثٍ وعـام خصـبٍ وعـام ولادٍ حسـن، لا يذكـرون من أمـر الآخـرة شـيئاً.. وورد عن ابـن عبـاس أنّ الآية نزلـت في هذا الفريق مـن الناس.. ولكـن مدلول الآية أعـمّ وأدوم.. فهـذا نموذج مـن الناس مكـرور في الأجيـال والبقاع. النمـوذج الذي همّـه الدنيا وحدها يذكرهـا حتـى حـين يتوجـه إلى الله بالدعـاء، لأنهـا هـي التـي تشـغله، وتملأ فراغ نفسـه، وتحيـط عالمـه وتغلقـه عليه. هـؤلاء قد يعطيهـم الله نصيبهـم في الدنيـا ـ إذا قـدر العطاء ـ ولا نصيـب لهـم في الآخرة عـلى الإطلاق!

---

١. تفسير الميزان، للسيد الطباطبائي: الآية. بإيجاز.

وفريقا أفسح أفقاً، وأكبر نفساً، لأنه موصول بالله، يريد الحسنة في الدنيا، ولكنه لا ينسى نصيبه في الآخرة فهو يقول: ﴿**رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ**﴾، إنهم يطلبون من الله الحسنة في الدارين. ولا يحددون نوع الحسنة، بل يدعون اختيارها لله، والله يختار لهم ما يراه حسنة، وهم باختياره لهم راضون، وهؤلاء لهم نصيب مضمون لا يبطئ عليهم، فالله سريع الحساب.

إنَّ هذا التعليم الإلهي يحدد لمن يكون الاتجاه. ويقرر أنه من اتجه إلى الله وأسلم له أمره، وترك لله الخيرة، ورضي بما يختاره له الله، فلن تفوته حسنات الدنيا ولا حسنات الآخرة. ومن جعل همّه الدنيا فقد خسر في الآخرة كل نصيب، والأول رابح حتى بالحساب الظاهر، وهو في ميزان الله أربح وأرجح، وقد تضمن دعاؤه خير الدارين في اعتدال، وفي استقامة على التصور الهادئ المتزن الذي ينشئه الإسلام.

ثمَّ يواصل كلامه قائلاً: إنَّ الإسلام لا يريد من المؤمنين أن يدعوا أمر الدنيا. فهم خلقوا للخلافة في هذه الدنيا. ولكنه يريد منهم أن يتجهوا إلى الله في أمرها، وألا يضيقوا من آفاقهم، فيجعلوا من الدنيا سوراً يحصرهم فيها.. إنه يريد أن يطلق الإنسان من أسوار هذه الأرض الصغيرة فيعمل فيها وهو أكبر منها، ويزاول الخلافة وهو متصل بالأفق الأعلى.. ومن ثم تبدو الاهتمامات القاصرة على هذه الأرض ضئيلة هزيلة وحدها حين ينظر إليها الإنسان من قمة التصور الإسلامي...[1]

الثالثة :

﴿**وَاذْكُرُواْ اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوآ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾.[2]

---

١. في ظلال القرآن : الآية .

٢. سورة البقرة : ٢٠٣ .

الإعراب :

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾: الواو عاطفة واذكروا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ومفعول به.

﴿فِي أَيَّامٍ﴾: الجار والمجرور متعلقان باذكروا.

﴿مَعْدُودَاتٍ﴾: صفة لأيام، وهي أيام التشريق الثلاثة،.. الفاء استئنافية ومن شرطية مبتدأ.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾: فعل ماض في محل جزم فعل الشرط.

الجار والمجرور متعلقان بتعجل.

﴿فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ﴾: الفاء رابطة ولا نافية للجنس، وإثم اسمها المبني على الفتح.

﴿عَلَيْهِ﴾: الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لا، والجملة المقترنة بالفاء في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من.

﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: والجملة معطوفة..

﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾: اللام حرف جر، ومن اسم موصول في محل جرّ باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، أي ذلك التّخيير. ونفي الإثم عن المتعجّل والمتأخر كائن لمن اتقى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: الواو عاطفة، واتقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ولفظ الجلالة مفعول به.

﴿وَاعْلَمُوا﴾: عطف على اتقوا.

إنَّ واسمها؛ ﴿أَنَّكُمْ إِلَيْهِ﴾: الجار والمجرور متعلقان بتحشرون.

﴿تُحْشَرُونَ﴾: فعل مضارع وفاعل والجملة الفعلية خبر أن، وأن وما بعدها في تأويل مصدر سدّت مسدّ مفعولي اعلموا.

وقد جاء الذكر بالأمر الرابع، ﴿وَاذْكُرُواْ اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ...﴾، وكذا جاء بصيغة المضارع في سورة الحج، الآية: ٢٨: ﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ﴾.

معدودات ومعلومات:

المعدودات تستعمل كثيراً في اللغة للشيء القليل، وكلّ عدد قَلّ أو كثر فهو معدود، ولكن معدودات أدلّ على القلة، لأنَّ كلَّ قليل يجمع بالألف والتاء. ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ وردت ثلاث مرات في التنزيل العزيز: في سورة البقرة: ١٨٤ و٢٠٣، وفي الآية: ٢٤ آل عمران.

وقد وقع الاختلاف بينهم في هذه الأيام، وأيضاً في الذكر.

قيل: هي أيام التشريق ثلاثة أيام بعد النحر، وقيل: أيام التشريق عن الحسن ومجاهد. وقيل: هي أيام التشريق يوم النحر وثلاثة بعده، وقيل: أيام العشر عن ابن عباس وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام واختاره الزجاج قال: لأنَّ الذكر ههنا يدلّ على التسمية على ما ينحر لقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِن بَهِيمَةِ الأَنعَام﴾، أي على ذبح ونحر ما رزقهم من الإبل والبقر والغنم وهذه الأيام تختصّ بذلك.

﴿أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾

أما المعلومات في قوله تعالى: فهي عشر ذي الحجّة، وهو المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وعن ابن عباس والحسن وأكثر أهل العلم. فيما خالف الفراء حيث ذكر: أنَّ المعلومات أيام التشريق، والمعدودات العشر.

فأما الأيام فقيل: هي أيام العشر من ذي الحجّة، وقيل: لها معلومات للحرص على علمها من أجل وقت الحج في أخرها.

ابـن الراونـدي: والصحيـح أنَّ المعـدودات هـي أيـام التشريـق لا غـير. والدليل عليه قولـه ههنـا: ﴿**فَمَـن تَعَجَّـلَ فِي يَومَينِ فَـلَا إِثمَ عَلَيـهِ وَمَن تَأَخَّـرَ فَلَا إِثمَ عَلَيهِ لِـمَنِ اتَّـقَى**﴾، والنفـر الأول والنفـر الثـاني لا يكونـ ن إلّا في أيام التشريـق بلا خلاف.

وأمـا الذكـر فقيـل: إنَّ الذكر في الآيـة: ﴿**لِيَشْـهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُـمْ وَيَذْكُرُواْ اسْـمَ اللهِ فِي أَيَّـامٍ مَّعْلُومَـاتٍ عَلَىٰ مَـا رَزَقَهُـمْ مِّن بَهِيمَـةِ الأَنْعَامِ فَكُلُـواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْبَـآئِسَ الْفَقِـيرَ**﴾. كنايـة عـن الذبـح؛ لأنَّ صحـة الذبح لما كان بالتسـمية سـمي باسـمه توسـعاً. وقيـل: هـو التكبـير. قـال أبوعبـد الله: التكبـير بمنـى عقيـب خمـس عـشرة صـلاة أولهـا صـلاة الظهـر من يوم النحر؛ يقـول: الله أكبر الله أكـبر لا إله إلا الله والله أكـبر الله أكبر ولله الحمـد الله أكـبر عـلى مـا هدانا والحمـد لله على ما أبلانـا والله أكبر عـلى ما رزقنـا من بهيمة الأنعـام. وأمـا الذكـر المأمـور بـه فهو أن تقـول عقيب خمس عـشرة صلـوات: الله أكبر الله أكـبر لا إلـه إلا الله والله أكـبر الله أكـبر ولله الحمـد الله أكبر على ما هدانـا والحمد لله على ما أولانـا، والله أكـبر عـلى ما رزقنـا من بهيمـة الأنعام.

وأول التكبـير عندنـا عقيـب الظهـر مـن يوم النحـر، وآخـره عقيب صـلاة الفجر من اليـوم الرابـع مـن النحـر، هـذا لمـن كان بمنـى، ومـن كان بغـير منى مـن الأمصـار يكبر عقيـب عـشر صلـوات أولـها صـلاة الظهـر من يـوم النحـر أيضاً، هـذا هو المـروي عن الصـادق عليه السلام، وفي ذلـك اختلاف بـين الفقهاء، ووافقنـا في ابتداء التكبير مـن صلاة الظهر مـن يـوم النحر ابـن عباس وابن عمر. وعـن الذكر في الآيـة: ﴿**وَيَذكُرُوا اسْـمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعلُومَاتٍ**﴾.

قيـل: إنَّ الذكـر فيهـا كنايـة عـن الذبـح، لأنَّ صحـة الذبـح لمـا كان بالتسـمية سـمّي باسـمه توسـعاً. وقيـل: هـو التكبير.

الشيخ الطبرسي :

﴿**وَاذْكُـرُوا اللهَ فِي أَيَّـامٍ مَعـدُودَاتٍ**﴾، هـذا أمر مـن الله للمكلفين أن يذكـروه في أيام

معدودات..

ابن الراوندي: وهذه الآية تدلّ على وجو التكبير أو استحبابه.

والأظهر أنها تجب بمنى وتستحب بغير منى.[1]

السيوري: وجوب الكون بمنى تلك الليالي، ويستحب النهار، وهو لازم عن الأمر بالذكر فيها... وأما الذكر فهو التكبير عقيب خمس عشرة صلاة لمن كان بمنى، وعقيب عشر لمن كان بغيرها...[2]

وأما عن الذكر المأمور به، فيقول الشيخ الطبرسي: هو أن تقول عقيب خمس عشرة صلوات، وأول التكبير عندنا عقيب الظهر من يوم النحر وآخره عقيب صلاة الفجر من اليوم الرابع من النحر هذا لمن كان بمنى، ومن كان بغير منى من الأمصار يكبر عقيب عشر صلوات أولها صلاة الظهر من يوم النحر أيضاً، هذا هو المروي عن الصادق عليه السلام، وفي ذلك اختلاف بين الفقهاء، ووافقنا في ابتداء التكبير من صلاة الظهر من يوم النحر ابن عباس وابن عمر..

وصورة الذكر المأمور به: الله أكبر الله أكبر لا إله إلّا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا، والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام.

الرازي: ﴿**فَاذْكُرُواْ اللهَ**﴾، يدلّ على أنّ الفراغ من المناسك، يوجب هذا الذكر، فلهذا اختلفوا في أنّ هذا الذكر أي ذكر هو؟ فمنهم من حمله على الذكر على الذبيحة. ومنهم من حمله على الذكر الذي هو التكبيرات بعد الصلاة في يوم النحر وأيام

---

١. مجمع البيان، الشيخ الطبرسي؛ وفقه القرآن لابن الراوندي: ٢٩٩ـ٣٠٠؛ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي وفيه: «... ولكن معدودات أوِّل على القلة...». وفيه كلام مفصل.

٢. كنز العرفان ١: ٣١٩.

التشريق، على حسب اختلافهم في وقته أولاً وآخراً؛ لأنَّ بعد الفراغ من الحجّ لا ذكر مخصوص إلّا هذه التكبيرات.

ومنهم من قال: بل المراد تحويل القوم عما اعتادوه بعد الحجّ من ذكر التفاخر بأحوال الآباء؛ لأنه تعالى لو لم ينه عن ذلك بإنزال هذه الآية، لم يكونوا ليعدلوا عن هذه الطريقة الذميمة، فكأنه تعالى قال: فإذا قضيتم وفرغتم من واجبات الحجّ وحللتم، فتوفروا على ذكر الله دون ذكر الآباء.

ومنهم من قال: بل المراد منه أنَّ الفراغ من الحجّ يوجب الإقبال على الدعاء والاستغفار، وذلك لأنّ من تحمل مفارقة الأهل والوطن وإنفاق الأموال، والتزام المشاق في سفر الحجّ، فحقيق به بعد الفراغ منه أن يقبل على الدعاء والتضرع وكثرة الاستغفار والإنقطاع إلى الله تعالى، وعلى هذا جرت السنة بعد الفراغ من الصلاة بالدعوات الكثيرة.

ويختم قوله بالوجه الخامس، وهو أنَّ المقصود من الاشتغال بهذه العبادة: قهر النفس ومحو آثار النفس والطبيعة، ثم هذا العزم ليس مقصوداً بالذات، بل المقصود منه أن تزول النقوش الباطلة عن لوح الروح حتى يتجلّى فيه نور جلال الله، والتقدير: فإذا قضيتم مناسككم وأزلتم آثار البشرية، وأمطتم الأذى عن طريق السلوك، فاشتغلوا بعد ذلك بتنوير القلب بذكر الله، فالأول نفي والثاني إثبات والأول إزالة ما دون الحقّ من سنن الآثار، والثاني استنارة القلب بذكر الملك الجبار.[1]

أبو حيان: ﴿**وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعدُودَاتٍ**﴾، هذا رابع أمر بالذكر في هذه الآية، والذكر هنا التكبير عند الجمرات وإدبار الصلاة وغير ذلك من أوقات الحج، أو التكبير عقيب الصلوات المفروضة، قولان... وظاهر قوله: ﴿**وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعدُودَاتٍ**﴾، الأمر بمطلق ذكر الله في أيام معدودات، ولم يبين ما هذه الأيام، لكن

١. تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ): الآية ٢٠٠ البقرة.

قولـه: ﴿**فَمَـن تَعَجَّـلَ فِي يَومَـينِ**﴾، يشـعر أنّ تلك الأيـام هي التـي ينفر فيهـا، وهي أيام التشريـق، وقـد قـال في (ريّ الظمـآن): أجمع المفسـرون عـلى أنّ الأيـام المعـدودات أيام التشـريق. انتهى.

وجعـل الأيـام ظرفـاً للذكـر يدلُّ على أنـه متى ذكـر الله في تلـك الأيام فهـو المطلوب، ويشـعر أنـه عنـد رمـي الجمار كـون الرمي غـير محصـور بوقـت، فناسـب وقوعـه في أي وقـت مـن الأيـام ذكـر الله فيـه، ويؤيده قولـه: ﴿**فَمَـن تَعَجَّـلَ فِي يَومَـينِ**﴾، وأنّ الخطاب بقولـه واذكـروا، ظاهر أنـه للحُجَّاج، إذ الـكلام معهم، والخطاب قبلُ لهـم، والإخبار بعدُ عنهـم، فلا يدخـل غيرهم معهم في هـذا الذكر المأمور بـه .. والكيفيـة:.. الله أكبر الله أكبر الله أكـبر لا إلـه إلّا الله والله أكـبر الله أكـبر ولله الحمـد... ويذكر أيضـاً أنَّ: هذا الخطاب هو للحُجَّـاج، وأنّ هـذا الذكـر هـو مـا يختـص به الحـاج من أفعـال الحـج، سـواء كان الذكر عنـد الرمـي أم عنـد أعقـاب الصلـوات، وأنه لا يشركهـم غيرهـم في الذكر المأمـور به إلّا بدليـل، وأنّ الذكـر في أيـام منـى، وفي يـوم النحر عقب الصلـوات لغير الحُجَّـاج، وتعيين كيفيـة الذكـر وابتدائه وانتهائـه يحتاج إلى دليل سـمعي...[1]

الخـازن: ﴿**وَاذكُـرُوا اللهَ**﴾، يعني بالتوحيد والتعظيم والتكبـير في أدبار الصلوات وعند رمـي الجمـرات، وذلـك أنه يكبر مـع كل حصاة من حصـى الجمار فقـد ورد في الصحيح أنّ النبـيَّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ كبر مـع كل حصاة.

﴿**فِي أَيَّـامٍ مَعـدُودَاتٍ**﴾، يعنـي أيـام التشريـق وهـي أيـام منـى ورمـي الجمار سـميت معـدودات لقلتهـن وهـي ثلاثـة أيام بعـد يـوم النحر، أولهـا اليـوم الحادي عـشر من ذي الحجـة وهـو قـول ابن عمـر وابن العبـاس والحسـن وعطاء ومجاهـد وقتادة وهـو مذهب الشـافعي. وقيـل: إنّ الأيـام المعـدودات يـوم النحـر ويومان بعـده. وهو قول عـلي بن أبي طالـب عَلَيْهِالسَّلَامُ ويـروى عـن ابـن عمر أيضـاً وهـو مذهـب أبي حنيفة عن نبيشـة الهـذلي قال:

---

١. تفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ): الآية. بتصرف بسيط.

قـال رسـول الله ﷺ: «أيام التشريق أيـام أكل وشرب وذكـر الله»... ومن الذكر في هذه الأيام التكبير.[1]

ابـن عاشـور :... ودلت الآية على طلب ذكـر الله تعالى في أيام رمي الجـمار، وهو الذكر عنـد الرمـي وعند نحر الهدايا. وإنـما أمروا بالذكر في هـذه الأيام، لأنَّ أهـل الجاهلية كانوا يشـغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء.

قال العرجي:

مـا نَلتقِـي إلّا ثـلاثَ مِنًـى حَتَّـى يُفَـرِّقَ بينَنـا النَّفْـر

وقال عمر بن أبي ربيعة:

بَـدَا لِيَ مِنهـا مِعصَـمٌ حـينَ جَمَّـرَتْ وكَـفٌّ خَضيـبٌ زُيِّنَـتْ بِبَنَـان

فـوالله مـا أَدري وإِنْ كُنْـتُ دَاريـاً بسَـبْعٍ رَمَيْـتُ الجَمْـرَ أَمْ بِثَـمَان

لأنهـم كانـوا يـرون أنَّ الحـج قد انتهـى بانتهـاء العاشر، بعد أن أمسـكوا عـن ملاذهم مـدة طويلـة، فكانـوا يعـودون إليهـا، فأمرهم الله تعـالى بذكر الله فيهـا، وذكـرُ الله فيها هو ذكـره عند رمي الجـمار...

والآيـة تـدلُّ عـلى أنّ الإقامـة في منـى في الأيـام المعـدودات واجبـة، فليـس للحاج أن يبيـت في تلـك الليـالي إلّا في منـى، ومـن لم يبـت في منـى فقد أخـل بواجب فعليـه هدي، ولا يرخـص في المبيـت في غـير منـى إلّا لأهل الأعـمال...[2]

ونختم مقالتنا بما ذكره سيد قطب في ظلال القرآن:

ثـم تنتهـي أيام الحـجّ وشـعائره ومناسـكه بالتوجيـه إلى ذكـر الله، وإلى تقـواه... وأيام عرفـة والنحر والتشـريق. كلها صالحة للذكر اليومين الأولين منهـا أو اليومين الأخيرين.

١. تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن (ت ٧٢٥ هـ).

٢. التحرير والتنوير: الآية.

بشرط التقوى ذلك ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾، ثم يذكرهم بمشهد الحشر بمناسبة مشهد الحجّ، وهو يستجيش في قلوبهم مشاعر التقوى أمام ذلك المشهد المخيف: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾.

فالقرطبي سبقهم، حسب ما تيسّر لي، وقد يكون هناك غيره...

❋❋❋